الشيخ ابراهيم اليازجي

نوابغ الفكر العربي

١٤

الشيخ ابراهيم اليازجي

١٨٤٧ — ١٩٠٦

بقلم عيسى ميخائيل سابا

أكبر عالم لغوى فى العصر الحاضر اتفق له
ما لا يتيسر إلا لقليل من اللغويين فى قوة البيان
و براعة الإنشاء .

مصطفى لطفى المنفلوطى

دار المعارف بيروت

الفصل الأول

عصر ابراهيم اليازجي

١ ـ الحركة السياسية

تمخّض عصر الشيخ إبرهيم عن حوادث اضطراب فى طول جبل لبنان وعرضه أواسط القرن التاسع عشر ، كان أهمها واقعة السنة الـ ١٨٦٠ م وقد اندلعت نيرانها بين الدروز والمسيحيين ، بإيعاز من الدولة العثمانية التى أمدت الدروز بالأسلحة ورغبت إليهم أن يقطعوا دابر المسيحيين من البلاد الخاضعة لها ، لبنان وسوريا ، ظنًّا منها أنها بذلك تكف أيدى الدول الأوربية المسيحية عن التدخل فى شؤونها ، لأن أوربا كانت تمد أصابعها إلى شؤون العثمانيين بحجة حماية نصارى الشرق . فأجبرتها الدول الروسية فى مؤتمر باريس على أن تساوى بين رعايا السلطنة قاطبة ، فيما يتعلق بالضرائب والوظائف بدون تمييز فى المذاهب ، وأن ترفع الضيم عن النصارى الذين كانوا يصادفون إهانات متعددة من بعض إخوانهم المسلمين الذين لم ينالوا نصيباً وافراً من العلم والمعرفة وجهلوا كثيراً من نواهى الدين الإسلامى الحنيف الذى أوصى خيراً بأهل الكتاب [١] .

ومن جهة ثانية نرى قبل هذا التاريخ أن الدروز والمسيحيين كانوا متحابين متصافين ولا سيما فى لبنان زمن الأميرين الكبيرين فخر الدين المعنى الثانى وبشير الشهابى الكبير الملقب بأبى سعدى . تشهد بذلك الأحزاب : القيسى واليمنى واليزبكى والجنبلاطى حيث كانت تضم بينها مختلف اللبنانيين من الطائفتين الكريمتين .

---

(١) « مشهد العيان » . طبعة مصر و « مجمع المسرات » . مطبعة الاجتهاد بيروت سنة ١٩٠٨ ص ٣٤ ـ ٤٧ و « قوافل العروبة ومواكبها » لمحمد جميل بيهم . مطبعة الكشاف بيروت ص ١٣ و « الحملة الكسروانية » ص ٣٥٣ للخورى منصور طنوس الخورى .

وسبق حادثة سنة الستين السنة العامية ١٨٥٤ م ، إذ وقع فى القسم الشمالى من لبنان بعد وفاة الأمير حيدر أبى اللمع حاكمه هيجان العامة ، فثار الفلاحون النصارى على الأمراء والمشايخ والملاكين ، بقيادة رجل بيطرى اسمه شاهين طنوس من ريفون [١] أشعل نار الثورة فى قضاء كسروان ، فلم تلبث أن امتدت إلى المتن ولبنان الشمالى ، فهجم الثوار على الأمراء الموارنة ومشايخهم وسابوهم أملاكهم ، فجاءت تلك الثورة ضربة على المسيحيين عموماً فأصبحوا عرضة للأخطار والضربات وذلك لفقدان الزعامة بينهم ، ولم تقتصر حوادث سنة الستين المشؤومة على لبنان فحسب ، بل تخطته إلى دمشق ، ووالیها يومئذ أحمد باشا الذى أوعز إلى الجند أن يساعدوا الثوار على ذبح المسيحيين عملاً بأوامر الباب العالى [٢] إلا أن الفضيلة لم تفقد أبناءها ، فقد حمى الأمير المبرور المغفور له عبد القادر الجزائرى نحو ألف وخمسمائة نفس فى منازله [٣] فكتب فى تاريخه صفحة مدادها الفخر والذكر الحسن والرحمات تترى على جدثه الطيب .

وبالرغم مما بذله قناصل الدول الأوربية من السعى فى سبيل تهدئة الحال وحقن الدماء ، لم يحرك خورشيد باشا والى بيروت ساكناً ، وكذلك رفيقه أحمد باشا والى دمشق ، فكأن منظر الدماء المسفوحة ، ظلماً وعدواناً ، قد راقهما وأطرب جلالة سلطانهما الرضىّ البال ، المتنعم فى قصره بين الجوارى والقيان والغلمان فى القسطنطينية ، فنقل قناصل الدول الأوربية خبر المجزرة المروعة إلى دولهم ، فقابلت أوربا من أدناها إلى أقصاها الخبر بصيحة الاستفظاع ، وطلب الرأى العام فى فرنسا من حكومته أن تتدخل . الأمر حالا بدون إبطاء ، وتهب لنصرة مسيحيي لبنان وسوريا ، وتضع حدا لظلم العثمانيين . وفى أوائل تموز (يوليو) من السنة نفسها اجتمع الأسطول الفرنسى والإنكليزى فى مياه بيروت ، ونزل الجيش الفرنسى إلى البر . وتدارك السلطان ووزيره فؤاد باشا الأمر ، فسبق قواد الفرنسيين إلى دمشق لئلا يدخلوها ويطلقوا أيديهم فى الحكم ، وأمر بإعدام

---

(١) ريفون بلدة اصطياف تقع فى قضاء كسروان وتعلو عن البحر نحو ألف متر اشتهرت ببساتين التفاح والخضراوات .

(٢) الباب العالى : لقب مجلس السلطان العثمانى .

(٣) « مشهد العيان فى حوادث سورية ولبنان » طبعة مصر .

مئة شخص منهم أحمد باشا والي دمشق . ومن ثمّ عقد مؤتمر في بيروت مؤلف من سفراء دول فرنسا وإنكلترا وروسيا وألمانيا والنمسا وفؤاد باشا وزير السلطان عبد المجيد الثاني ، وبعد مناقشات ومداولات وضعوا نظاماً جديداً للبنان ، أطلقوا عليه اسم «القانون الأساسي» وأقروا جعل لبنان لواء مستقلاً تابعاً للآستانة رأساً، يتولى رياسته متصرف مسيحي ينصبه سلطان تركيا بعد موافقة دول أوربا على تعيينه ، وقد جرى ذلك في التاسع من حزيران (يونيو) سنة ١٨٦١ ، وبمقتضى هذا النظام قسم لبنان إلى سبعة أقضية مؤلفة من إحدى وأربعين ناحية ، فيها ٩٥٧ قرية ، أما الأقضية فهي : الشوف ، المتن ، كسروان، البترون، الكورة، جزين وزحلة ، وسلخوا عن متصرفية لبنان المستقلة استقلالاً داخلياً ، وادي التيم والبقاع ومقاطعة صيدا وأخيراً بيروت وصور .

وكانت سن المترجم له يومئذ أربع عشرة سنة ، فيكون قد عاصر من متصرفي جبل لبنان ستة متصرفين هم :

داود باشا الأرمني ١٨٦١ — ١٨٦٨ م
فرنكو باشا كوسى الحلبي ١٨٦٨ — ١٨٧٣ م
رستم باشا الإيطالي الأصل ١٨٧٣ — ١٨٨٣م
واصه باشا الألباني ١٨٨٣ — ١٨٩٢م
نعوم باشا الحلبي ١٨٩٢ — ١٩٠٢م
مظفر باشا البولوني [١] ١٩٠٢ — ١٩٠٧ م

٢ — الحركة الاجتماعية

بعد أن استقرت الحياة في لبنان وسوريا واطمأن الناس إلى أنفسهم بفضل تدخل الدول الأوربية ، انصرفوا إلى الثقافة وكانت تباشيرها قد بدأت زمن الأمير بشير الشهابي الكبير [٢] فرأينا اختلافاً بيناً بين عصور آداب اللغة

(١) «موجز تاريخ سوريا » للمطران يوسف الدبس . طبعة المطبعة العمومية الماروئية . بيروت سنة ١٩٠٧ و « مختصر تاريخ لبنان » منشورات مكتبة صفير ببيروت ص ١٨٢ — ١٨٧ .

(٢) راجع « نوابغ الفكر العربي » العدد السادس ص ٦ — ٩ . طبع « دار المعارف بمصر »

والأحوال الاجتماعية والسياسية جملة . وذلك لتأثير المدنية الأوربية واتصال الشرق بالغرب ، وتأثير الإرساليات الدينية بما أنشأته من مدارس ومطابع ، كالإرسالية الأميركية والإرسالية اليسوعية وغيرهما ، على أن الحياة العقلية قديما كانت تنمو نموًّا داخلياً بما تبدعه قرائح أفراد من الكتاب والشعراء .

وأما فى عصر النهضة فقد توافرت الترجمات وطلعت فى سمائها كواكب الفكر الأوربى فاتجه اتجاهاً جديداً فى اللغة والأدب والفكر ، وكان للمترجم له فضل كبير فى ذلك بما عقده من أبحاث علمية ولغوية وأدبية فقد رفع منار لغة الضاد وأعلى شأنها وألحقها بأرقى اللغات الأوربية فى جميع العلوم العصرية [١] .

وكانت العوامل الأساسية فى بعث النهضة هى الآتية :

١ ــ إنشاء المدارس الحديثة .
٢ ــ الطباعة .
٣ ــ الصحافة .
٤ ــ روح الحرية الشخصية .
٥ ــ الجمعيات الأدبية والعلمية .
٦ ــ المكاتب العمومية .
٧ ــ المتاحف .
٨ ــ التمثيل .
٩ ــ اشتغال الفرنجة بآداب اللغة العربية .

فهذه العوامل كلها قد أثرت فى العقل الشرقى ولا سيما اللبنانى ، وبعثت نهضة لمسنا أثرها فى أدبنا المعاصر ، ولا نكران أن حقبة والد مترجمنا كانت حقبة تقليد [٢] فيها شىء ضئيل جدا من الاتجاه نحو التجدد ، فما إن شب الشيخ إبرهيم عن الطوق حتى عمد إلى ديباجة النثر يلبسها حلة قشيبة فترسم أساليبه غير

---

(١) انظر المنتخبات و « الموجز فى الأدب العربى وتاريخه » . منشورات مكتبة صفير . بيروت ص ٢٤٣ .

(٢) « نوابغ الفكر العربى » العدد السادس .

واحد من أدباء عصر النهضة ، ولعل جرجى زيدان يوضح لنا هذه الناحية أحسن إيضاح بما ننقل عنه [١] بتصرف قال :

« إن أكثر ما ظهر من علوم اللغة فى العصر الأول من هذه النهضة لا يخرج عما كتب قبله ، وأكثره تلخيص أو شرح أو تعليق على كتب القدماء . وظلت الحال على ذلك فى مصر إلى عهد غير بعيد . أما فى سوريا ، ولا سيما فى لبنان ، فقد حدث فى اللغة وعلومها حركة بين المسيحيين ، وكانوا إلى ذلك العهد قلّما يشتغلون فى اللغة وقل من ألف منهم ، وإذا ألفوا فلا يلتفت إلى تأليفهم ، ولا يوثق بأقوالهم . وكانت المدارس على اختلاف أديانها تعلم العربية فى الكتب القديمة كالأجرومية وابن عقيل والأشمونى والصبان والحريرى ونحوها .

فلما ظهر اليازجى الكبير [٢] فى أواسط القرن الماضى وقد تكاثرت المدارس النصرانية فى بيروت ، قرب الأميركان الشيخ ناصيف منهم وعولوا عليه فى تصحيح مسودات ترجمة التوراة وغيرها ، فألف أرجوزته — نار القرى — واختصرها ولده مترجمنا ، ووضع مقاماته ، مجمع البحرين ، وفصل الخطاب وغيرها ، وأقبل الطلاب على دراستها . . .

ثم ظهر أحمد فارس الشدياق فنظر فى اللغة نظراً تحليلياً ، ووضع كتابه "سرّ الليال فى القلب والإبدال" على نسق جديد سرد فيه الأفعال والأسماء الأكثر تداولاً ورتبها بالنظر إلى التلفظ بها لإيضاح تناسبها وتجانسها لفظاً ومعنى . وألف كتاب "الفارياق أو الساق على الساق" على أسلوب جديد فى اللغة العربية ، وبعد انتشار مذهب النشوء والارتقاء [٣] أصاب علوم اللغة شىء منه فتولد علم الفلسفة اللغوية [٤] وتولد أيضاً علم تاريخ آداب اللغة العربية ، ومداره النظر فى اللغة العربية باعتبار أنها كائن حى قابل للارتقاء بالنمو والدثور » . وانصرف مترجمنا الشيخ إبرهيم إلى النظر فى كتب أبيه واختصارها كما سنبين ذلك قريباً . وقام فى

---

(١) « آداب اللغة العربية » ج ٤ ص ٢٥٥ طبعة دار الهلال بمصر سنة ١٩١٣ .

(٢) هو الشيخ ناصيف اليازجى والد المترجم له .

(٣) نشر فيه مجلدين الدكتور شبل الشميل وطبعا فى مصر فى مطبعة المقتطف .

(٤) ظهر أول كتاب « الفلسفة اللغوية » سنة ١٨٨٦ فى بيروت لمؤلفه جرجى زيدان ، ثم ألف فى الفلسفة اللغوية الأستاذ جبر ضومط واسم كتابه « الخواطر » .

بيروت وفى لبنان قاطبة نهضة جديدة بفضل البستانيين والأسير واليازجيين والأحدب وغيرهم من رجال العلم والفكر ، وبما بعثه كرنيليوس فانديك [١] من روح علمية فى أفئدة النشء ، فقد عمد إلى ترجمة كتب العلوم ككتاب « النقش فى الحجر » فى سبعة أجزاء ، و « الخلاصة الوافية فى الجغرافية » إلى غير ذلك .

٣ ـ الحركة الفكرية

أقبلت النهضة تتهادى على أجنحة الفكر وحب الاقتداء بالغرب ، والشعر على جموده لم يتغير فيه شىء يذكر ، لأن عوامل المدنية الحديثة ، لم تكن قد انتشرت بعد ، فلم تستنبت فى الأحوال الاجتماعية ما يؤثر فى القرائح والعقول ، أو يتناول أقلام الكتاب ، وقل الأمر نفسه فى النثر ، على أن الشعر سبقه فى النهوض والاتجاهات الجديدة ، فبعد سنة ١٨٦٠ م ترك الناس فى لبنان قراهم ووجهتهم بيروت ، وقدمها كذلك أناس من دمشق وغيرها ، وأقبل الفرنجة مرسلين وتجاراً وبثوا مذاهبهم وتعاليمهم فى المدارس والأسواق ، فدخل الشعر شىء من صبغة المدنية الحديثة والخيالات الشعرية التى تأثرت بها القرائح بوساطة المهاجرة أو مطالعة كتب الفرنجة الشعرية ، أو بما حدث فى مصر ولبنان من مظاهر المدنية وأسباب الحضارة الحديثة .

وتمشت روح الحرية الشخصية فى النفوس بشيوع العلم الطبيعى وغيره ، فكان داعية إلى حل القيود المتوارثة فى الاجتماع والأفكار وفى جملتها القيود الشعرية فتبدلت أساليب نظمها وطرق التصور والأخيلة ، وظهر غير واحد من الشعراء يقلد الأساليب الفرنجية وصفاً وغزلاً وقصة ، فكان لنا عدا الشعر الغنائى ، الشعر التمثيلى والحكمى والقصصى ، ورق شعور الشعراء بتأثير التربية العلمية الحديثة ، فأدركوا من عواطف الإنسان وقواه الشىء الكثير ، وتبين لهم من أسرار

---

(١) فانديك : رجل هولندى الأصل أميركى التبعة أتى لبنان فأحبه واتخذ عاداته وألبسته وبعث نهضة حية فى القلوب .

قلبه ما لم يعرفه القدماء ، وما ذلك إلا من أثر الثقافة التى أخذوا أنفسهم بها ، فتخلصوا من الاستهلال والجناس وأنواعه ، وصاروا إذا نظموا فى غزل أو مدح أو رثاء ، تناولوه رأساً . على أنه بقى قلة من الشعراء المحافظين كانوا يعارضون أساليب القدماء ويتمسكون بطرق النظم فى الجاهلية وما بعدها .

وإنه لمن الخير لنا أن نسمع رأى مترجمنا فى الشعر قال : « معلوم أن الشعر من أعلى طبقات الكلام وأبعدها غاية ، لما يقتضيه من شرف الألفاظ ونباهة المعانى ، وسلامة الذوق والمبالغة فى التنقيح والتهذيب ، فابتذاله على ألسنة غير أهله مما يزرى به ويفسد رونقه ويسقط مزيته ، بل ربما أفضى إلى دفن كثير من جواهره فى صدور أربابه ، لأنه إذا أصبح متداولاً بين أيدى العامة ، وابتذله من لا يحسنه أنف المجيدون له من انتحاله ، وتجافى كبراء أهل القول عن نزول كنفه » [1] .

أما القول فى النثر فسنبحثه عندما نتكلم عن إنشاء مترجمنا .

---

(١) راجع المنتخبات .

الفصل الثانى

الشيخ ابراهيم اليازجى فى عصره

١ ــ حياته

ولد الشيخ إبرهيم بن ناصيف اليازجى فى بيروت فى الثانى من شهر آذار (مارس) سنة ١٨٤٧م فى بيت هو موئل اللغة والأدب، وتخرج فى مبادئ العلم وأصول اللغة على أبيه ثم قرأ على نفسه ، فنال بجدّه وذكائه الغاية البعيدة ، ونظم الشعر فى ريعان الشباب ، فجاء شعره برهاناً على الإتقان وعلى أنه وَرث الخيال عن أبيه ، فرق أدبه وصفا خاطره وتطايرت شهرته فى جودة النظم [١] ، فاحتكم إليه فريق كبير من الأدباء وورد عليه من رسائل الشعراء الشىء الكثير ، حتى أصبح مجلسه لا يخلو من بحث شعرى أو أدبى ، على أنه رأى فى ذلك ما يشغله عن سواه ، فهجر النظم وعكف على المطالعة ، ودرس الفقه الحنفى على المرحوم الشيخ محيى الدين اليافى أحد مشاهير الأئمة فى ذلك الحين ، فنال منه حظاً وافراً .

وفى السنة ١٨٧٢م عهد إليه تحرير جريدة « النجاح »، فظهر من اقتداره ما بعدت معه شهرته ، وعمد الآباء اليسوعيون يومئذ إلى ترجمة الكتاب المقدس ، فاستعانوا به وفوضوا إليه تنقيح العبارة من حيث الإنشاء والسبك وانتخاب الألفاظ للمعنى المراد ، فكان ذلك سبباً فى درسه اللغة العبرية والسريانية ليلبس عبارة الترجمة المعنى الأصيل بصدق وأمانة .

فصرف فى ذلك الكتاب نحو تسع سنوات يتحرى المعنى ويضع الكلمة اللائقة التى تنطبق على المعنى الصحيح ، فلا يعتورها خلل فكرى أو لفظى .

(١) انظر المنتخبات .

حتى أخرجه بحلة أنيقة على أفضل ما يرجى بلاغة وصوغاً وفصاحة مفردات . ولا سيما العهد القديم الذى أطلقت له اليد فى تنقيحه ، فجاءت ترجمة حسنة الديباجة صافية اللغة ناصعة العبارة .

وكان كلما أرهقه تعب الكتابة والتأليف مال إلى الراحة استجماماً ، فيصرف أوقات فراغه فى الرسم والحفر والموسيقى ، وقيل : إنه كان دون الرابعة عشرة من عمره حين صنع أول تقويم « روزنامة » عربى [١] وقد أولع فى مطلع شبابه بالشعر ثم ما لبث أن انصرف عنه إلى النثر ، فجال فيه جولات موفقة حتى أصبح فيه فارساً من أسبق فرسانه وعلماً من كبار أعلامه ، وسارت له بسطة علم وقدم راسخة فى اللغة بحقيقتها ومجازها ، فبز المتقدمين والمتأخرين فى دراستها وحذقها ، وتبوأ منصة البيان وجلال الأسلوب ، متفرداً بمعرفة أصولها وفروعها واشتقاق كلمها وشواردها وأوابدها ، وصرفها ونحوها وبديعها وبيانها ، وعروضها وقوافيها ، وجزلها وسهلها ، وأحاط بأخلاق العرب وعاداتهم وأنسابهم ووقائعهم وأخبارهم رواية ودراية ، فعنت له صاغرة وأنالته عنانها ، فأركض جواد قلمه فى ميدانها ، فجال وصال وبرع وأبدع ، مستعيناً بتوقد ذهن نظرى وذاكرة مرهفة الشعور ، وعت فاستوعبت حتى صار حجة يعوّل عليه ، ومرجعاً فى حلّ عقد اللغة العربية وجلاء مبهماتها ، وهو العارف بموارد الكلام ومصادره ، والبصير بجيده وسفسافه ، والطويل النفس فى بحوثه اللغوية ، البعيد غور الحجة ، فلم يتورع عن أن يحمل حملة عنيفة على كتابات الأقدمين والمحدثين ، فخطأهم وأقام الدليل على سلامة نقده بالحجج القواطع والبينات النواصع ، غير تارك زيادة لمستزيد ، فكان يصوب سهم يراعته إلى تلك الخطيئات أو السقطات عن قلب مملوء بالشجاعة ، غير متوار وراء معاقل المخابىء ، فيصيب المرمى ، ويرسل مباضعه إلى الجراح الوسخة العفنة فيشفى المعضل منها غير عابئ بأنين المتألمين ودمدمة المدعين [٢] .

---

(١) « النفائس » الاحتفال بنقل رفات المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى . بيروت مطبعة النفائس سنة ١٩٠٦ ص ٢٢ .

(٢) « الشدياق واليازجى » للأب أنطونيوس شبلى طبعة بيروت ص ٥ .

٢ ــ مشاركته فى أحوال العصر سياسياً

لم يكن مترجمنا حريصاً على اللغة فحسب بل تناول القومية العربية وعمل فى سبيل إحيائها وإذكاء نارها فى قلوب النشء، وكان يرمى إلى أن يرى البلاد العربية متمتعة باستقلال تام، رافعة عنها النير العثمانى ، يدلنا على ذلك انخراطه فى سلك الجمعية العلمية السورية التى أنشئت فى بيروت سنة ١٨٦٨م فكانت تتلى فى اجتماعاتها قصائد عامرة ومقاطع شعرية مثيرة تتحدث بأمجاد العرب .

وفى أول اجتماعاتها دوّى أوّل صوت للحركة العربية والدعوة إلى القومية ، فكان صوت شيخنا الذى أنشد قصيدة هز بها أوتار القلوب وحركها لتنظر إلى حاضرها ملتفتة إلى الوراء وما كان لها من مجد تليد وعزّ عريق قال فى مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا أيهـــا العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب [١]

وتجاوب صداها فى البلاد العربية عامة، ثم أتبعها بقصيدة ثانية مطلعها :

دع مجلس الغيـــد الأوانس وهـــوى لواحظهـــا النواعسْ

وقد تطرق فيها إلى العمائم والقلانس والمساجد والكنائس مما حملنا على إغفالها فى المنتخبات ، ومدارها تحريض العرب على السعى للاستقلال متخذاً الجبل الأسود نموذجاً حيا للاستقلال والدفاع عن كيانه وانسلاخه عن الدولة العثمانية [٢]

ومن قراءة القصيدة « دع مجلس الغيد » نرى نفساً ثائرة آلمها ما غشى البلاد من فساد إدارى واجتماعى ، آل إلى موجة سأم وكراهية عصفت بالنفوس فتمنت زوال الحكم العثمانى .

وقد نشرت القصيدتان غفلا من التوقيع ، فاهتمت بهما حكومة الآستانة وبأمثالهما وسعت جاهدة لتعرف الناظم فراح سعيها عصفة ريح [٣]. فما تقدم نفهم نزعة

---

(١) راجعها فى المنتخبات .

(٢) «العروبة ومواكبها» قوافل ج ٢ لمحمد جميل بيهم – مطبعة الكشاف ببيروت ص ١٥ .

(٣) « المختارات السائرة » لأنيس الخورى المقدسى طبع دار العلم للملايين ببيروت ص ١٦٣ .

الشيخ العربية وحبه الخالص لها وما كان يجول فى خاطره من ميل شديد إلى استقلال البلاد العربية جملة والتفلت من قيود العثمانيين الذين طغوا وبغوا فأيموا النساء ويتموا الأطفال وأفقروا البلاد ، وعقلوا العقول وهشموا الألباب وساروا بالناس ولا سيما العرب كأنهم سائمة .

وصور مترجمنا حالة البلاد بقوله « وما عداها من مدن سوريا القديمة قد عفاها تقلب الأحوال ، فلم يبقَ منها إلا رسوم وأطلال ، وقامت على أنقاضها الآن قرى حقيرة منتشرة فى هاتيك الربوع الدائرة ، يأوى إليها شراذم من بقايا الأمم الغابرة ، كأنها لم تبق إلا لتشهد بما تجنيه الحروب من الدمار ، وما يحدثه تفريق الكلمة والشقاق من التباب والبوار » (١) .

وما قدمنا هذا إلا لنبين مشاركة الشيخ إبرهيم فى أحوال عصره السياسية ، ومن أحب لغته أحب قومه وسعى إلى رفعتهم وإنهاض شأنهم ، واللغة مفتاح سجن الأمم المغلوبة ، فإذا أضاعت لغتها فكأنها فتحت أبواب سجنها بيدها لتدخله .

٣ ـ أخلاقه وصفاته

كان رحمه الله ربع القامة عصبى المزاج ، حاد الذهن ، ذكى الفؤاد ، سريع الخاطر ، لا يمل مجلسه ، يطرب للنكتة ويضحك ، عفيف النفس ظاهر الأنفة إلى حد الترفع ، شديد الحرص على كرامته ، كثير الإباء ، ولا سيما بما يتعلق بالارتزاق ، يعد مجاملة الناس فى الكسب تملقاً ، ولولا ذلك لعاش فى سعة وبسطة من العيش ، ولكن القناعة كانت من أكبر أسباب سعادته (٢) ولم يرغب قط فى الوظيفة وخدمة الحكومة فقد انتدب فى سنة ١٨٨٢م ليكون قائم مقام على مدينة زحلة فرفض (٣) .

ولقد اشتهر بأدبه الرفيع وخلقه الكريم وفسحة رقعة صدره ، وبرصانته ورزانته ، وضنانته بسمعته وكرامته من التبذل والتسفل ، يترفع عن المهاترة

---

(١) راجع المنتخبات .

(٢) « النفائس » ص ٢٤ .

(٣) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٩٥ .

والمقاذعة والمخاشنة فى مجاهداته ومجادلاته ، يجلّ خصمه إجلاله لنفسه ، وينتقد الخطأ محترماً صاحبه ، متجاوزاً هجر الكلام الداعى إلى التنابذ والتنافر ، والتقاطع والتدابر ، وجرّ المرء إلى هبوط منزلته وإخلاق ديباجة وجهه . ولعل هذين البيتين يدلاننا على مجمل أخلاقه قال :

ليس الوقيعة من شأنى فإن عرضتْ ... أعرضتُ عنها بوجه بالحياء نـدى
إنى أضنّ بعرضى أن يلم به ... غيرى فهل أتولى خرقه بيـدى ؟

٤ــ برّه بأبيه

لقد أثر عن الشيخ مترجمنا أنه كان برًّا بأبيه الشيخ ناصيف مفاخراً بأدبه وعلمه ، يؤثله أن ينال أحد قلامة ظفر منه ، فقد نظر فى كتبه وأصلح الخطأ منها وقال إنه اختصرها ، وقام على شرح ديوان أبى الطيب المتنبى ونسبه إلى أبيه ، لأنه كان قد بدأه ، فلم يرغب فى أن يجعل الفضل فيه لنفسه بل احترم إرادة والده وقد كان شرع يعلق على شعر أبى الطيب ولم يوءاته القدر لإتمامه ، فنظر فيه ابنه مترجمنا نظرة صادقة وقام على شرحه وتفسير أبياته المستغلقة ، وأتبعه بنقد أدبى لشعر المتنبى أزال عنه الزيف وطهره من أدرانه ، واحتال له بتصويب ما خالف اللغة وأوضاعها بلغة سهلة جامعة مانعة ، وفكر رائق وحجة دامغة ، وبدليل ما تقدم ننقل ما قال فى نهاية الديوان [1] « . . . وكان أبى رحمه الله قد شرع فى تعليق هذا الشرح على هامش نسخة من الديوان بخطه ، كان يثبت فيها ما يعنّ له من تفسير أو إعراب أو شرح بيت تذكرة لنفسه مع ذكر كثير من وقائع النظم وتراجم بعض الممدوحين وغيرهم مما يسنح له فى أثناء مطالعاته ، إلا أنه لم يتقص فى شىء من ذلك ولا تتبع أبيات الديوان على التوالى ، وخصوصاً المواضع المستغلقة التى تدعو إلى إطالة الروية والاستنباط مما لم يرضه كلام الشراح فيه ، فإنه كان يتجاوزها فى الأغلب ، ويترك موضع الكلام فيها مخرجاً على الهامش ،

(١) « العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب » . المطبعة الأدبية بيروت ص ٦٢٥ .

كأنه كان ينوى معاودة هذا الشرح والتوفر على إتمامه، ثم لم يفسح له فى الأجل فبقى الشرح على علاته » ويخلص إلى القول أنه أبقى عنوان الشرح باسم أبيه رعاية لكونه هو الواضع الأصيل ، فلم يؤثر أن يتطفل عليه فى نسبة الكتاب وإن تطفل عليه فى التأليف .

ومما يحملنا على إثبات بره بأبيه عدا ما تقدم ، تصديه للردّ على أحمد فارس الشدياق ، وقد خطأ الشيخ ناصيف « والد المترجم » فى عروبة بعض كلمات وردت فى « مجمع البحرين » من أمثال « الفطحل » و « المرابض » ، والناظر فى تلك المناقشة تتجلى له أخلاق الشيخ إبرهيم على صغر سنه وميعة شبابه، وقد كال له الشدياق السباب ونعته بآلم النعوت وأخبث الأوصاف ، فما كانت غضبة الشدياق إلا لتزيد الشيخ إبرهيم حلماً ، ولسان حاله يردد :

يزيد سفاهة وأزيد حلماً كعود زاده الإحراق طيبا

وقد ترفع عن مقابلته بالمثل من السباب والشتائم فما أخذته حدّة ولا نزوة [١] .

٥ ــ طعامه وشرابه

قضى الشيخ إبرهيم أعوامه الأخيرة متعففاً بطعامه وشرابه، يتناول فى الصباح طعاماً خفيفاً ، ويعكف على العمل ، حتى إذا جاء الظهر ، تغدى ودخن « الشيشة » ، « الأركيلة » ونام وقت القيلولة ، ثم يقضى بقية النهار فى عمل لا يتعبه ، فيلاعب بعض معارفه بالنرد ، ويصرف ما تبقى من نهاره بالفكاهات ، وفى المساء يقتصر على كوب من اللبن ثم يستأنف العمل إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكان لا يكتب إلا واقفاً أمام منضدة عالية [٢] .

---

(١) « الشدياق واليازجى » طبعة بيروت ص ٦ .

(٢) « النفائس » ورواية عيسى إسكندر المعلوف وجرجى نقولا باز والفيكونت دى طرازى .

٦ ـ مواهبه وقرائحه

كان رحمه الله مصوراً متقناً وحفاراً ماهراً ، وله فى الصناعة اليدوية المقام الأول ، والإتقان فى كل عمل يعمله وحركة يأتيها ، فهو متأنق فى قيامه وقعوده وفى كلامه وملبسه ، وفى مشربه وطعامه ، وفى مشيه كما فى شعره ونثره ، فى خطه وتصويره[1] وعلى الجملة فقد كان رجل ثقافة واسعة ، ورجل فنّ وإتقان، جنوحاً إلى العزلة المثمرة ، حريصاً على كرامة نفسه ، أبياً أنوفاً لا يخلو من كبر وقسوة لاذعة لمن تحرش به على غير حق أو نال منه مغمزاً ، لأنه كان يرى أن قناته لا تغمز لأنه ما كان لينشر ما يكتب إلا بعد روّية وإعمال فكر ، ومراجعة ما يخط قلمه غير مرّة ، وفى سبيل كلمة واحدة كان يدبج مقالة ليوضح معنى تلك الكلمة .

---

(١) المصدر السابق .